من تلميذ إلى أستاذه

بقلم محمد عبد السلام بحر

منذ سنوات خلت كنت أجلس أمام معلمي الأستاذ عبد الله عفيفي في درسه وكلي أذن صاغية وقلب واع لما يدور في خلده من شتى المعاني والصور ، فيجري على لسانه خير آيات وعبر

بين جدران الفصل الأربعة ، وفي ذلك العدد القليل من زملائي ، كنت أنتهل من مورده العذب في صمت مقتنعاً برأيه لا أنبس ببنت شفة — ولقد عودنا الأستاذ فيما عودنا حرية الرأي — فاليوم وقد نضجت في أثماره فليهنأ بجنيها — ولكن أما وقد كبر الشيخ وذهبت أسنانه بددا — فليعان قضمها ، وليسمح لي بأن أجابهه بلسان الحق وعلى ملأ من الأدباء بمناقشة أدبية في قصيدته التي رثى بها المغفور له الدكتور شاهين باشا . ولكن في رفق كما كان يرفق بي ، وفي أدب كما يجب أن يتأدب ولد مع والد

لقد قال الأستاذ :

أشكو الأسى وبدا الآسى موسدة لقد تمادين في الاسراف أيامي

ولقد سبق فضل الأستاذ على فعلمني أن الفعل يطابق الفاعل إفرادا وتثنية وجمعاً ، تذكيراً وتأنيثاً إذا جاء بعده ، أما إذا سبقه فيجب افراده ؛ وترونه هنا يقول (تمادين أيامي) . معاذ الله أن أقول إن الأستاذ نسي هذه القاعدة . أو إنه تغافل عنها لضرورة (الوزن) ، وإنما أقول إنه يكشف عن آثار اللغات القديمة أمثال لغة (أكلوني البراغيث) التي كثيراً ما كان يعيب علينا وقوعنا فيها في موضوعاتنا الانشائية

ثم يقول :

. . . . . كد لعقل واشغال لأفهام

وهنا لا أقول إنني بحثت عن (اشغال) في معاجم اللغة فلم أجدها ، وإنما أذكر الأستاذ بطرفة من طرفه الممتعة التي كان يخفف بها عنا عناء الدرس إذ قال : — كتب أحدهم مرة إلى ابن العميد — (أريد إشغالي عندك) — فرد عليه ابن العميد — (إن من يكتب لي إشغالي ، لا يصلح لأشغالي)

ثم يقول :

. . . . . عن نوح نائحة أو دمع أقلام

وفي بيت آخر :

. . . . . رقبي الهلال على دياجة العام

هنا لا يمكنني أن أقول إنني لا أفهم (دمع الأقلام ولا دياجة العام) — فان تأنيب الأستاذ في مثل هذه المواقف لا زلت أذكره ولا يزال يرهبني — وانما تخلصاً من هذا المأزق أقول إن الأستاذ يتصرف في المعاني تصرفاً قياسياً ، فهو يقول : (دمع الأقلام ودياجة العام) وأنا أطأطئ رأسي خاشعاً لهذه البلاغة العميقة فهي ليست على قياس (جناح الذل وماء الملام) فحسب ، بل هي أبلغ من هذا وأسمى . على أنه في نفس الوقت كان يقصد (بدياجة العام) — دياجة الشهر ، ولكن استلزمته القافية لأن يخلق هلالاً سنوياً على رأس أهلة الشهور الاثني عشر لا يرقبه سواه

ثم يقول :

أبو الأطباء أودى ليت ناعيه لاقى الردى قبل منعاه بارغام

هنا يخيل إلي أن الأستاذ قد آلى على نفسه إلا أن تكون القصيدة أربعين بيتاً كاملة ، فقد زج بهذه الألفاظ في هذا القالب زجاً — أو أنه قال : أبو الأطباء أودى — وقد توسط فرأى أن يدعو على الناعي الذي لا ذنب له فأتى بباقي البيت التزاماً للقافية — وأما إذا كانت هذه هي سنته في كل مصرع فأولى به أن يدعو على سيدنا أبي بكر الذي نعى موت الرسول صلى الله عليه وسلم إذ قال : « من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » . ثم يقول :

مضى الطبيب الذي للطب من يده إحياء أفئدة موتى وأجسام

هنا تأخذني الحدة ولا أذكر ورقة العقاب وأقول (لاحياء في العلم) وأعلن رأيي جهاراً بأن الأستاذ لم يتحفظ في هذا البيت بل كبا كبوة ما لها من مقيل . متى أحيا شاهين باشا الموتى ؟ دون هذا وينفق أطباء العالم . ثم لأذكر فضل الأستاذ على فلا أبارزه بحسامه ، ولأهدأ قليلاً ثم أصلح له زلة كم أصلح لي من أمثالها فأقول :

مضى الطبيب الذي للطب من يده شفاء أفئدة مرضى وأجسام

ثم يقول :

. . . . . وليس للموت من نقض وإبرام

هنا أنسته المشاكلة اللفظية أن الموت قضاء مبرم وأنه هو ينفي إبرامه ؛ ثم يقول :